جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

جامـــــعة محمد بو ضياف – المسيلة

كلية الآداب واللغات

الإيداع القانوني: ماي 2017 الترقيم الدولي : 0058- 2570

العدد الثالث : جانفي 2018 الجزء 02-

03

مجلة دوليـــــة علمية محكمة

- نصف سنوية - تصدر عن كلية الآداب واللغات

العـــمدة

EL- Omda

في اللسانيات وتحليل الخطاب

En linguistique et analyse du discours

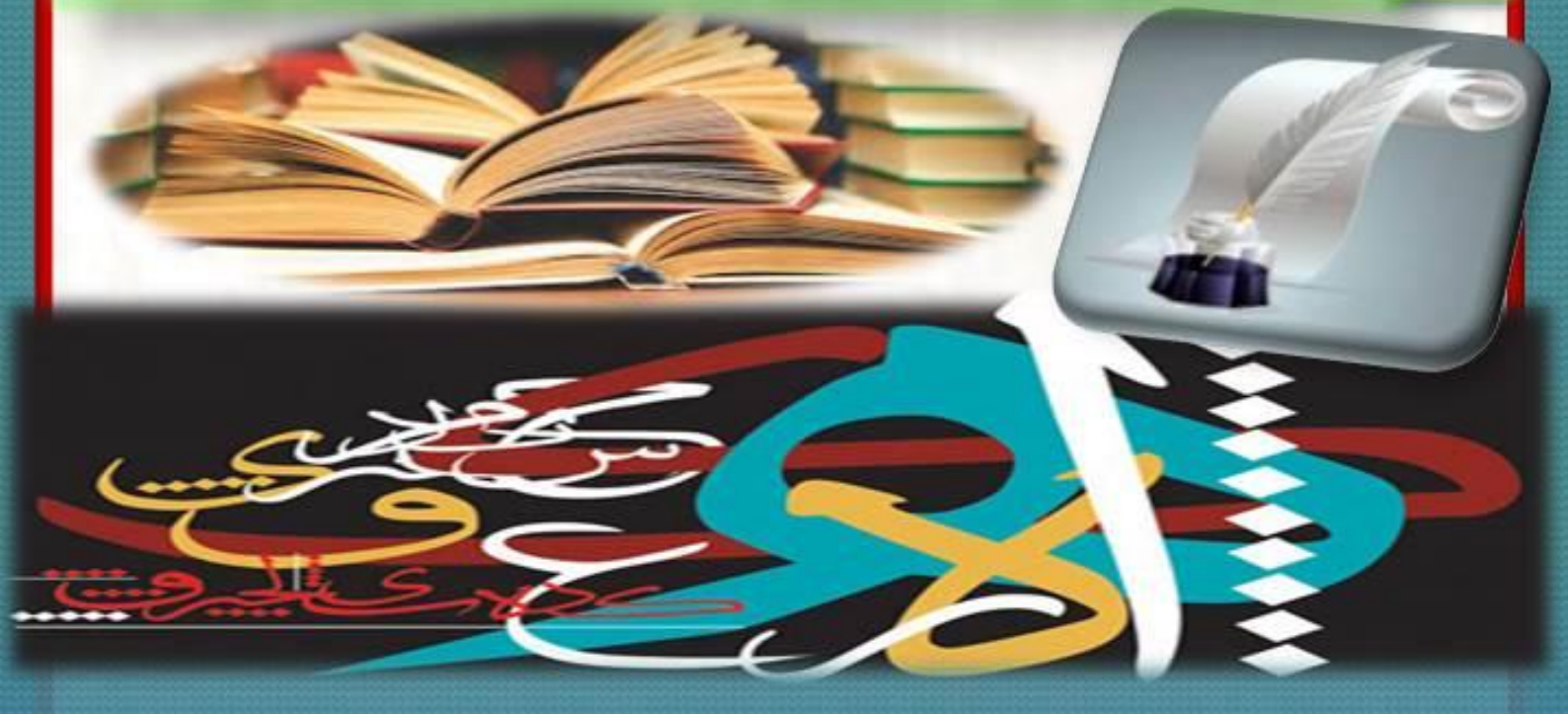

العُـــمْدَة

في اللسانيات وتحليل الخطاب

مجلة ، دوليـــــــــــة ، علمية ، محكمة - نصف سنوية -

تصدر عن كلية الآداب واللغات

جامعة

محمد بوضياف - المسيلة - الجزائر

العدد الثالث - جانفي 2018 - الجـزء 02

البريد الإلكتروني للمجلة : Alomdamadjala@gmail.com

- الموقع الرسمي للمجلة -

http://virtuelcampus.univ-msila.dz/fll/?p=5069

- الترقيم الدولي : Issn: 2572- 0058

- تاريخ الإيداع القانوني: ماي 2017

مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي

د. حسين عمر دراوشة
جامعة غزة – فلسطين

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام الإبراهيمي، من خلال الحديث عن الإمام الإبراهيمي ومنجزاته اللغوية، والكشف عن جهود الإصلاح اللغوي ومقوماته في شخصية الإبراهيمي، وبيان الأبعاد الحضارية في خدمة الإبراهيمي للغة العربية وتنميها وتطويرها في ظل المتغيرات التي شهدتها الساحات العربية والإسلامية، ومن ثم خاتمة البحث وفيها النتائج والتوصيات، وحواشي البحث، وقائمة للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: (الإصلاح اللغوي، البعد الحضاري، اللغة والإمام الإبراهيمي).

المقدمة:

تعد اللغة الوسيلة التعبيرية الأولى التي يمكن من خلالها تحقيق الازدهار والتقدم، ورسم الصورة الحارية المتفاعلة، التي تسهم في بلورة المكانة التاريخية لأمة العرب والمسلمين، لقد بذل الإمام الإبراهيمي جهوداً عظيمة في سبيل الإصلاح اللغوي، فنجده يطلق صرخات لغوية على منابر العلم والمعرفة في كل المحافل والاجتماعات الفردية والجماعية، مما يُشير إلى وجود فكر متجدر ورؤية ثاقبة للنهضة والتنمية والتطور، ولم يكن ذلك ضرباً من العبث أو اعتباطاً؛ إنما صدر ذلك عن مقومات رئيسة يمكن من خلالها رسم الصورة الحضارية والقومية وتدعيم وطائد الهوية الوطنية لأبناء الشعب الجزائري، لذا يسعى هذا البحث إلى بيان مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وذلك من خلال تسليط الضوء على النقاط الآتية:

أولاً- الإمام الإبراهيمي ومنجزاته اللغوية.

ثانياً- جهود الإصلاح اللغوي ومقوماته عند الإمام الإبراهيمي.

ثالثاً- الأبعاد الحضارية في خدمة الإبراهيمي للغة العربية وتنميها وتطويرها .

وبيان كل ما سبق بالمنهج الوصفي التحليلي، مع استحضار نماذج من أقوال الإمام الإبراهيمي بما يسهم في كشف مقومات الإصلاح اللغوي وأبعاده الحضارية في آثاره، وتقديم دراسة مستقلة تتعلق بالفكر اللغوي ومنطلقاته عند الإبراهيمي، ووضع أساسيات التفكير اللغوي الحضاري في ضوء تجربة الإمام الإبراهيمي؛ ليتسنى للباحثين والدارسين من أهل اللغة وأرباب الثقافة والجهات ذات العلاقة الاستفادة من موضوع البحث وأفكاره المبثوثة في ثناياه ويحويها في طياته، فالكشف عن أسرار شخصية الإبراهيمي وطريقة تفكيره وكيفية بناء لشخصيته وذاته غاية ما يصبو إليه البحث؛ لأن هذا الإمام ترك بصمات واضحة في الثقافة العربية والإسلامية وقدم نموذجاً حياً متفاعلاً مع قضايا شعبه وأمته، وهذا النموذج لم يكن ليرتقِ ويحيا إلا بمقومات استراتيجية وقومية لها آثارها على أرض الواقع، وأبعادها الحضارية في الحياة الإنسانية.

أولاً- الإمام الإبراهيمي ومنجزاته اللغوية.

يعد الإمام الإبراهيمي أحد أفذاذ الحضارة العربية الحديثة، فترك بصمات واضحة على صعيد المعرفة العربية وحاول جاهداً دعم مضامينها ومحتوياتها على مختلف المستويات والأصعدة، يبتغي من ذلك تشكيل الوعي العربي القائم على أسس علمية ومنطقية تسهم في رقي الأمة وتقوى الوشائج بين أبنائها؛ حتى لا يكون العقل العربي تابعاً لغيره من قوى الاستعمار والاستكبار العالمي التي تستهدف الشعوب العربية؛ لتحقيق أطماعها ومكتسباتها التي تستهدف استعمار العقل وتحويله عن طريق الجادة وجعله جزءاً تابعاً لفكر المستعمر وأداة طيعة لتنفيذ المخططات القمعية التي تسحق الآخر وتنفيه.

يمتلك الإمام الإبراهيمي فكراً تنويرياً متقدماً استطاع من خلاله مقارعة الغزاة الطامعين، وإرشاد الناس لطريق الحق والخير، ولعل أبرز الوسائل التي امتلكها الإبراهيمي من أجل تحقيق ذلك اللغة باعتبارها حقيقة اجتماعية تمثل فلسفة المجتمع وتعبر عن قضاياه، فهي وثيقة الصلة بالمجتمع الجزائري العربي المسلم، الذي حاول المحتل الفرنسي أن يمحق لغته العربية الأم ويحل محلها اللغة الفرنسية؛ لضمان تبعية الجزائر ونهب خيراتها ومقدرات شعبها، فاستطاع الإبراهيمي بمنجزاته اللغوية أن يقارع المحتلة بكلماته التثويرية والتنويرية التي أضفت على اللغة بعداً حيوياً ومضامين شتى تعبر عن محاور وموضوعات تتعلق بالنهضة والتمرد ورفض سياسة الاستعمار والإحلال والاحتلال.

لقد نشأ الإبراهيمي في جو استعماري ملبد بالآهات والأنات والحملات القمعية لأولي الأمر والنُّهى، فوقع على كاهله بناء نفسه وتشكيل الوعي ونشره بين أبناء المجتمع الجزائري في ظل نشر الاستعمار الفرنسي لسياسة التجهيل والتفقير والطمس لمقومات الأمة وثوابتها؛ وكل ذلك لعزل المثقفين من أمثال الإبراهيمي عن واقعهم وكبح جماحهم والحيلولة دون نشر أفكارهم التوعوية التي تبين طريق الجادة لأبناء الجزائر والأمة جمعاء.

ويُلاحظ أن الشخصية الجزائرية التي أرسى معالمها الإمام الإبراهيمي وغيره من أصحاب الأفكار النيرة، قد زلزلت أركان العدو الفرنسي الذي سام الجزائريين سوء العذاب، ولكن صلابة الأحرار حالت دون ذلك من خلال تمسكهم بمقومات الحضارة العربية والإسلامية، تلك المقومات التي توجه السلوك البشري إلى طريق الجادة والصواب مهما تكالبت عليه المؤامرات، كالقرآن الكريم مثلاً، فبالطبع كل ذلك يؤثر على مسيرة اللغة العربية؛ فنجد أن أحد الحكام الفرنسيين يقول بهذه المناسبة:" إننا لن ننتصر على الجزائريين ما دامو يقرأون القرآن، ويتكلمون العربية؛ فيجب أن نزيل القرآن من وجوههم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم"[1]، لقد جابه الإبراهيمي هذا الاقتلاع والاجتثاث، وانتصر عليه بفكره اللغوي الحر المبني على أسس ثقافية تستجلي الحكمة اللغوية والأسلوب القويم في التطبيق والتنفيذ وصولاً للمبتغى المأمول في ظل احتدام الصراع وتعدد أوجهه.

فتنوعت أوعية المنجزات اللغوية وأشكالها التي قام بها الإبراهيمي، ولعل أبرز ما يطالعنا أنه أسهم في تشكيل المجلس العلمي الدمشقي الذي آتى أكله في حقول العربية وأحيا تراثها ونشر علومها ومعارفها، وتشارك في نشر الكثير من المقالات التي تتعلق

بالوعي اللغوي والتعريف بأصول العربية وأساسيات قواعدها، وكيفية التعامل مع المستجدات اللغوية وإخضاعها لمقاييس العربية ومعاييرها، وأرسى قواعد مشروعه النهضوي على ضرورة التمسك بالتراث العربي والإسلامي الذي يشكل الهوية الحضارية لأبناء المجتمع الجزائري، والاهتمام بقضايا اللغة باعتبارها وسيلة البيان تربط الماضي وتترجم حال الأمة ولمستقبلها، فكان الإبراهيمي لغوياً متمرساً، وأديباً بارعاً ترك الكثير من الأشعار والإشارات النقدية التي حوتها مقالاته في طياتها.

والناظر إلى كتابه "عيون البصائر" يقف على حقائق رئيسة أدلى بها في صفحاته تكشف لنا عن سعة العقل الإصلاحي عند الإبراهيمي ودقة مداركة وفساحة رؤيته لواقع الجزائر والأمة قاطبةً، فتداخل المستويات والأصعدة مع الجوانب اللغوية التي طرحها الإبراهيمي، أبرز ما تحدثه عنه وفصل القول فيه وبسط نقاشات متنوعه في حقوله ومضامينه، ولعل السبب في ذلك أن اللغة المحرك الأساس الذي يكشف عن رؤية الإبراهيمي وفلسفته النهضوية التي ترمي إلى بناء الإنسان العربي بشكل حضاري متقدم، يليق بمقامه في ظل المتغيرات التي لحقت بالحياة البشرية الحديثة.

يعد الإمام الإبراهيمي من سدنة المفكرين الذين شغلتهم الاهتمامات القومية ومسؤولياتهم في الحركة الإصلاحية عن الإنتاج المكتوب، فهو كالشيخ سالم بو حاجب بتونس، ومحمد بن العربي العلوي بالمغرب الأقصى، وقبلهما حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، فاهتم الإبراهيمي في تكوين معارف الرجال وتوجيههم على أرض الواقع بروح قومية وثابة نبعث الجدة والفكر الحضاري في سلوكيات أبناء المجتمع الجزائري والعربي وأجياله المتعاقبة؛ فيقول:" لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلى بأنني ألّفْتُ للشعب رجالاً، وعملتُ لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبياً، وحسبي هذا مقرباً من رضى الرب ورضى الشعب"[(2)]، هذا الحس الحضاري المتعمق يذكي عنصر الإبداع والجدة في التعامل مع مختلف القضايا بفكر مستنير يرسم لأجيال الشعب سُبل الجادة، ويستعرض أصول النهضة الحقيقية، فلم يدخر جهداً من أجل الرقي والتطور في حقول العلم والمعرفة، مما زاد المحتوى المعرفي للغة العربية في أطوار النهضة والتقدم وعند إرساء قواعد الإصلاح بضروبه كافةً.

إن المنجزات اللغوية للإمام الإبراهيمي تمثل في مجملها بالمعارف الحية التي كان يلقيها على مسامع القراء والمهتمين من أبناء الشعب الجزائري، فكانت منجزاته اللغوية يسبق فعله فيها قوله، بمعنى أن ابتدع لنفسه طريقة الإلقاء المباشر والالتحام اللغوي مع الجماهير من أجل توجيه البوصلة اللغوية لمبتغاها الصحيح، ولا ضير في ذلك لأن اللغة من أعظم الوسائل التي يتسلح بها المصلحون من أبناء أمة العرب والمسلمين خصوصاً في ظل وجود ساحات للصراع والتحدي، فالمدخل الرئيس لتحويل الذات الإنسانية وتغريبها في ظل موجات من الاستعمار وأطماعه الشريرة؛ يجعل لسان الإنسان المحتل يتبع للسان المستعمر؛ لأنه

يمتلك أدوات القوة والتمكين؛ لكن الإبراهيمي جابه ذلك بفكره وفعله ومن ثم بخطاباته الإرشادية التي لم يفتأ أن يتوقف عنها في سبيل تحقيق النهضة والتقدم الحضاري.

لقد ترك هذا الرجل إرثاً حافلاً بالمنجزات الثقافية التي تعد اللغة قوامها الرصين الذي شيدت عليه أركانها وصروحها المعرفية والعلمية في ظل توالي المتغيرات على الشعب الجزائري، ولسنا بصدد التمجيد والإطراء بقدر ما نحن نريد تسليط الضوء على منجزاته اللغوية بشكل عام باعتباره أحد أساطين العلم والإصلاح بألوانه كافةً.

ثانياً- جهود الإصلاح اللغوي ومقوماته عند الإمام الإبراهيمي.

إن مفهوم الإصلاح في الحقل اللغوي يتضمن إزالة أوجه الفساد عن اللغة بمستوياتها كافةً، وذلك لطرق وضوابط تسهم في الحفاظ على اللغة، وتساعد في توسيعها وتنميتها[3]، لذا تميز الإمام الإبراهيمي بجهوده اللغوية المستنيرة، التي اتخذ فيها اللغة سلاحاً للتغيير وإرساء قواعد النهضة المعرفية والإصلاح الشامل، ومواجهة الاستعمار الفرنسي وأطماعه على ثرى الجزائر، فأنار السبيل أمام ناظر أبناء الأمة قاطبةً، فبذل هذا الرجل قصارى جهد لمناصرة بلاده وتحريرها من دنس الطغاة الغاصبين، والانعتاق من ربقة التبعية والضعف والاستكانة، فأردف العربية بسيل عرم من الآراء اللغوية والاتجاهات التي تجسد البعد الإصلاحي للغة العربية وتعزيز وجودها في الحضارة الإنسانية المعاصرة، وتنميتها وتطويرها والمحافظة على سلامتها ونلمس ذلك في اهتماماته برجال اللغة ومفكريها وتسليط الضوء على الشخصيات التراثية التي نبغت في مجالات العربية وعلومها.

إضافة إلى اهتمامه بتشكيل النوادي والمجالس والمراكز والهيئات المجامع العلمية التي تهتم بقضايا العربية وتسعى إلى مناقشتها وتطوير أدوات العربية وأساليبها في إحياء التراث وإعادة نشره، والتعامل مع المستجدات اللغوية التي أنتجتها الحضارة المعاصرة، فأسهم في بناء مجمع اللغة الدمشقي بسوريا، وذلك عند رحلته إلى المشرق العربي، فالتقى علماء دمشق وأدبائها، فكان من ضمن المشاركين في تحقيق أهداف المجمع وغاياته في تعريب الإرادات الحكومية، فهذا انعكس على شخصية الإبراهيمي وأبرز جهود الإصلاح اللغوي لديه في طرحه لآرائه المتمثلة في التعامل مع أصول اللغة ومستجدات الحضارة وكيفية إخضاعها لمقاييس العربية وقواعدها، بما يسهم في مواكبة العربية للتطور الحداثي ويسهم في إحياء علومها بطريقة رصينة، تستشير عيون التراث العربي وتبتكر الأساليب الجديدة المبنية على معايير واضحة الهدف والمغزى، فامتلاك الوسيلة يسهل تحقيق الهدف الإصلاحي والنهضوي الذي اختزله الإبراهيمي في عقليته الفذة التي استطاعت أن تترك بصمات واضحة على مستوى القضايا الأساسية للنهضة والبناء كقضية اللغة التي نتحدث عنها في بحثنا هذا.

لقد كرس هذا الرجل جهوده اللغوية بفكر جماعي ينبثق من وحدوية اللغة العربية وانعكاساتها على المعارف الأخرى وتناسقها مع النهضة والإصلاح الذي يعد الإبراهيمي أحد أركانه الرئيسة، فكان من بُناة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أخذت على عاتقها

تنمية الفهم وتطوير الوعي في المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي، فرسمت هذه الجمعية لنفسها أهداف بعيدة أسهمت في تحرير الجزائر واستقلالها، ولقد أولت هذه الجمعية اللغة العربية أهمية خاصة عن طريق إرساء قواعد الإصلاح الشامل الذي يعد الإصلاح اللغوي أحد أشكاله، وذلك اعتماد أسلوب التربية والتعليم والتكوين العلمي والمعرفي، وبناء المساجد والنوادي والمدارس، وإحياء المقومات الذاتية للشخصية الجزائرية، وربط الجزائر بمحيطها العربي والإسلامي الذي أراد الاستعمار انتزاعها منه[4]، فهذه الأساليب تعتمد بشكل أساسي على تدعيم وطائد العربية؛ للمساهمة في تحقيق مبتغى الرسائل الإصلاحية ونقلها من دائرة التنظير إلى التطبيق والممارسة، وهذا يتوجب بناء عقول تتشرب الفكر الإصلاحي وتسانده وتسعى جاهدةً في سبيل تحقيقه ونشر تعاليمه وتطبيق مبادئه وخططه.

امتزجت الجهود الإصلاحية اللغوية بالعامل الديني عند الإمام الإبراهيمي الذي كرس حياته لخدمة قضية الأمة العربية والإسلامية بفكر استراتيجي ينبعث من أهداف عظمى توحي بشخصية الإبراهيمي وآثاره التي تركها على مختلف الأصعدة في المجتمع الجزائري بشكل خاص، وعلى مستوى المجتمعات العربية بشكل عام، فدار الإبراهيمي في حومة الإصلاح والمصلحين الذين يشقون لغتهم الأم التي بثوا من خلالها آرائهم ومبادراتهم وحملاتهم التوعوية والإرشادية بهدف تنمية الأمة والرقي بها في مصاف الأمم المزدهرة.

وتعد الذاكرة الحافظة التي يتمتع بها الإبراهيمي من العلامات الفارقة التي أعانته على تحقيق الإصلاح اللغوي وإرساء قواعده؛ فقيل:" إنه كان قوي الذاكرة حيث ذكر الشيخ علي الطنطاوي أنه ركب معه السيارة من دمشق متوجهين إلى القدس بحضور مؤتمر حول فلسطين ويقول الطنطاوي أني ما ذكرت له بيتا إلا ذكر لي القصيدة وقائلها حتى أنه بدأ يسمعه مقالات الشيخ التي كان يكتبها في مجلة الرسالة، وعندما استعجب الشيخ الطنطاوي من حفظه للنثر، أجابه أن لم يحفظها متعمداً وإنما هو يحفظ كل ما يقع تحت بصره"[5]، لقد حفظ القرآن ودرس متون اللغة برأس الوادي، وتتلمذ علي يدي الشيخ العربي التبسي عندما زار المدينة عام 1913م، فالاطلاع المستمر على أصول العربية ومنابعها العتيدة مكن الإبراهيمي من فرض آرائه واتجاهاته وسبكها في بوتقة النهضة والتنمية والتحرر والاستقلال.

لقد رافق الإمام الإبراهيمي العظماء من أبناء جيله، وتقلد قيادة الحركة النهضوية ومؤسساتها، فكان نائباً للرئيس الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإمام عبد الحميد بن باديس، ثم أصبح الإبراهيمي رئيساً لها بعد وفاته[6]، ولا يخفى على ذي لب ما لهذه الجمعية من أثر عظيم في حياة الشعب الجزائري وخلاصه من المحتل الفرنسي، وما تمثله هذه الجمعية من أصالة أبناء الجزائر ومناصرتهم لقضايا شعبهم وأمتهم، لقد رسمت طريق النهضة والتقدم لأبناء الأمة العربية والإسلامية، ويُلاحظ أن أهل الإصلاح تمكنوا من العربية في سبيل تبليغ رسائلهم وتحقيق مقاصدهم وتنفيذ أجندتهم التنموية التي تهدف إلى النهضة والتطور.

يُلاحظ أن الإبراهيمي مزج أعمال الإصلاح اللغوي بفكره النهضوي انطلاقاً من العنصر البشري، والإعداد الجيد لذاته والتسلح بضروب المعرفة، والتشبيك والتعاون مع أبناء أمته في سبيل تحقيق الأهداف والمغازي للنهضة والتطور، وأبرز ما يُطالعنا في شخصية الإبراهيمي اللغوي اللغوية أن ارتكز على مقومات رئيسة في سبيل تدعيم وطائد الإصلاح اللغوي وتقوية وشائج العربية بمسيرة التنمية الحضارية المستدامة، ومحاولة استثمار المتغيرات المعاصرة وحسمها لصالح اللغة العربية في دولة الجزائر، وتتمثل هذه المقومات في المشاركة في بناء المؤسسات الفاعلة على مستوى العالم العربي والأعجمي، فأسس لبناء صروح شامخة بما يمتلكه من فكر وثقافة أرست قواعد البناء وتشكيل الوعي، وطرح الرُّؤى المستقبلية التي تستهدف قطاعات العلوم الإنسانية ومعارفها، وقد تشكل فكر الإبراهيمي في حفظه؛ لمقومات الشخصية العربية الإسلامية وزادها المعرفي الذي يوسع الفكر لدى الفرد المسلم ويقوي شخصيته من خلال بناء منظومة عقائدية وروحية متفاعلة مع رسائل الإنسانية وتحمل الحب والخير والرحمة والسلام ونبذ الظلم والعنف والإرهاب، ومن دلالات ذلك في فكر الإبراهيمي وشخصيته حفظه لكتاب الله (ﷻ) دراسة علومه مما هذب لسانه وقوم فكره ووجه للنافع المفيد؛ لأن القرآن الكريم سيد الحجج وأبلغها، فساهم القرآن في نشر روح الحكمة وحب العلم والمعرفة ومحاربة الجهل والتأويل الفاسد[7]، مما أثر في شخصية الإبراهيمي وترسيخ المبادئ الحضارية في فكره المتقدم، ودرس متون اللغة والفقه وحفظها، فامتلك مفاتيح اللغة وتشرب أصولها انطلاقاً من وجهته الدينية وفكره المتقدم المشحون بالوعي والثقافة، فجابه بذلك التغريب الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري المسلم؛ لسحق اللغة العربية ونفي وجودها من عقول الناشئة وكبار السن على السواء، واجتثاث ارتباطهم القومي بالبعد العربي والإسلامي، وتغريب تفكيرهم وطرق تعبيرهم؛ لأن قمة التغريب تغريب اللسان لقطعه من لغة القرآن اللغة العربية الفصحى[8]، فالهجوم على القوام الثقافي للإسلام والمسلمين في العالم يشغل جهات كثيرة، من أخطرها ما يتخذ العربية- لغة هذا الدين- هدفاً له، فيوجه الطعن إليها، مدركاً أن زعزعة أي من ثوابت اللغة العربية أصالة ألفاظها أو معانيها أو خصائصها يُخل بأساس الاحتجاج بنو مصادر التشريع الإسلامي: القرآن والسنة والآثار الشارحة لهما؛ وبسند الاستنباط منها، ويجعل العربية في متناول الأهواء[9]؛ إنها هجمة شرسة لم تر العربية لها مثيل، وما تركته من رواسب خطيرة على اللسان العربي في الجزائر، فالفكر اللغوي ودعائمه تشكلت بموجبها شخصية الإبراهيمي الحضارية التي أسهمت في نقلة نوعية على مختلف حقول العلم والمعرفة، ولا سيما أن الإبراهيمي أخذ على عاتقه الذهاب لمجالس أهل العلم والكتاتيب والنهل من علوم شيخوها وروادها، مما زاد التلاقح العلمي مع أفكار الآخرين وخرج برؤية إصلاحية شاملة تنطلق من عبق التراث وأعماقه من خلال حفظ أصوله وإحياء عيونه ونشر ما بها من فرائد ودرر بروح عصره المتجدد، فرافق أبناء زمانه من الجهابذة والمفكرين من أمثال العربي التبسي

وابن باديس والشيخ علي الطنطاوي[10]، فيقول:" ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً، فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر، ولا أكذب الله، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر) ولكن... مَن لي فيه بصدر رحب، وصحب كأولئك الصحب؛ ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع وسقت، وأفرغت فيها ما وسقت، فكم كانت لنا فيها من مجالس نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية"[11]، كل ذلك حقق تقدم فعلي على صعيد الإصلاح اللغوي ومقوماته.

وساهم في إنشاء المجلات والصحف التي تعرض المعارف اللغوية والمعلومات والأفكار والآراء والاتجاهات ونقلها للجمهور، والكشف عن الفلسفة الإصلاحية ومنطلقاتها التي تؤثر فيها وتسهم في رقيها وتطويرها، مما يشكل تربة خصبة للإبداع والتميز في مضمار العلم وحقوله، مما جعل الإبراهيمي يوجه العقول ويهز المشاعر بكتاباته الملتزمة التي تستهدف القضايا الجوهرية للوطن في ظل موجات الاستعمار، والمساهمة في النهوض من خلال ما خطه ببراعه، وما عمله من مجلات وصحف تُعنى بنشر الحقائق واستجلاء معالمها وإماطة اللثام عن طريق الثورة والتجديد والنهضة والتقدم، وأسهمت المشاركات اللغوية الهادفة التي قام بها الإبراهيمي في المؤسسات العربية المتخصصة في تثبت دعائم الفكر الإصلاحي للغة من خلال معرفة أصولها والإطلاع على آراء أهل الاختصاص وأرباب الثقافة، فتلاقت أفكار الإبراهيمي مع الآخرين من أبناء الأمة المخلصين الذين أخذوا على عاتقهم النهوض بلغتهم بعيداً عن الأضواء والشهرة، إنها معركة البحث عن الذات وبناء الشخصية وصقلها بمهارات التحرر والانعتاق من الذل والهوان، ومن أبرز مقومات ذلك بناء المعرفة المتكاملة وتنميتها لدى أبناء المجتمع الجزائري؛ لتنوير عقولهم وتثويرهم وإيقاظ مشاعرهم نحو الثوابت الوطنية والقومية المشكلة للهوية العربية في الجزائر، فالمشاركات البحثية وتدوين المعرفة اللغوية وتدوينها أثرى فكر الإبراهيمي وجعله يستعرض القضايا المؤثرة في مسيرة التطور والنهوض.

وركن الإبراهيمي إلى الاعتماد على الجانب التثقيفي والإرشادي في نشر علوم العربية ومعارفها؛ مما عزز بناء الوعي في شخصيته والنهوض بها، وطرح جملة من الرؤى والإرشادات التي ترتقي بعلوم العربية وآدابها، والإيمان بالجانب التطبيقي للغة، مع التركيز على أن اللغة حقيقة اجتماعية لا فردية، فهي تنشأ في أحضان المجتمعات[12]، فهي "ظاهرة إنسانية اجتماعية؛ كالعادات والتقاليد والأزياء ومرافق العيش، بل هي بين الظواهر الاجتماعية كلها دليل نشاطها، ووعاء تجاربها، وبها تستقصى الملامح المميزة لكل مجتمع"[13]، والاعتزاز باللغة العربية في ظل وجود الاستعمار الفرنسي، فزاحمت الفرنسية العربية، فاستطاع الإبراهيمي تدعيم مضامين العربية، ومجابهة المتغيرات اللسانية التي ألحقتها اللغة الفرنسية باللسان العربي في الجزائر، والانفتاح على الثقافات والحضارات الإنسانية الأخرى، من خلال فتح آفاقاً للمشاركة الفاعلة في عملية الترجمة والتعريب مما ينتج أجواء إيجابية

لحيوية المثاقفة وانعكاساتها على مسيرة التنمية اللغوية وتطوراتها.

بذل الإمام الإبراهيمي جهوداً عظيمة في خدمة مسيرة الإصلاح اللغوي، فزرع البذور الرئيسة وأسس القواعد التي تنطلق منها عملية النهضة اللغوية، وشكل ذلك مقومات جسدت الفكر اللغوي والإصلاح النهضوي الذي يستهدف اللغة كإحدى القطاعات الحيوية في الحضارة العربية والإسلامية، فاللغة وسيلة الاتصال والتفاهم بين الأفراد والجماعات، وعندما تكون متفاعلة تبني النهضة وتبعث الحياة فيها، كما تكون اللغة تكون الحضارة، ونعلم أن " قوة اللغة من قوة أهلها"[14]، وهذا ما مارسه الإبراهيمي في تثبت دعائم الإصلاح اللغوي بتطويع التحديات ومجابهة العراقيل واستثمار الإمكانات المتوفرة بعقلية متفتحة واستثمار حكيم بإدارة رشيدة، تبين الفكر الإصلاحي المختزل في ذاكرة الإمام الإبراهيمي.

ثالثاً- الأبعاد الحضارية في خدمة الإبراهيمي للغة العربية وتنميها وتطويرها .

يتمثل التفكير اللغوي المتقدم الإمام الإبراهيمي في إدارته للمعرفة اللغوية من منطلق اصطلاحي باعتبارها إحدى المقومات الأساسية للنهضة بالشخصية الجزائرية خاصة ورمز لمجدها وعزتها ورفع رايتها خفاقة في مصاف الأمم وفي حضارات الشعوب والثقافات البشرية، إن الإحساس التعاظم لشان اللغة في فكر الإبراهيم أسس لمرحلة نهضوية متفاعلة تنطلق من وحي العربية وأصولها الرصينة التي لها وسائلها الخلاقة في أداء رسالاتها ورصانة فحواها ومضامينها، إن التوسع في اللغة وتنمية أساليبها وأدواتها ينعكس تماماً على البنية الفكرية والثقافية للمجتمع الجزائري، ولعل أبرز ما يُلفت النظر أن الإمام الإبراهيمي خدم اللغة العربية بأساليب متنوعة تنضوي تحتها كثير من النشاطات الهادفة والأعمال التي تستهدف القطاعات الحيوية للغة وما يتعلق بها، فاعتلى المنابر يصدح بالعربية ويلقن دروسها لطلاب العلم ومحبيه، وأسس بمقالاته وكتاباته لكم معرفي وفير عزز مكانة العربية وأسهم في رقيها وتطويرها، فالاستخدام الفعلي المتفاعل لأساسيات النصوص ومنجزاتها يعزز محتوى العربية ويوفر ساحة رحبة للإبداع والتميز، وصناعة العلامات الفارقة في لغتنا العربية، فأسهم الإبراهيمي في تنمية الذوق العام للمجتمعات العربية، وذلك " بنشر علوم اللغة العربية ودعمها، وفتح الآفاق أمام الجمهور العربي، للمشاركة في تشكيل الفكر الثقافي للأمة والعمل على نشره بين أبناء المجتمعات الأخرى"[15].

إن المتغيرات الحضارية فرضت على الإبراهيمي أن يكون واعياً أشد الوعي في ظل وجود ساحة للصراع والتحدي؛ لمقاومة عنجهية المحتل ومنهجه الإحلالي الذي يسعى إلى طمس الهوية العربية للجزائر وانعتاق ربقتها من التراث العربي والإسلامي، وهنا تكم الخطورة في التبعية في مجالات الحياة كافةً، فالإمكانات والتحديات جعلت الإبراهيمي يشكل في أدواته للتعامل مع الأوضاع الراهنة التي كان يحياها في ظل غشامة المحتل وصلفه الذي يستهدف القطاعات المشكلة للهوية الجزائرية؛ لإذابتها في بوتقة كيانه وجعلها جزء لا يتجزأ من هويته الأم، فالصراع لم يتخذ طرقاً تقليدياً، وعلى ذلك خطا الإبراهيمي من هذا المنطلق خطوات عظيمة آتت أكلها في حقول العربية ومعارفها،

فحمل رسالة العربية وبثها في ظل تعثر اللسان العربي من موجات المحتل وأساليبه، يعد من المنجزات الحضارية التي ساهمت في حفظ العربية وصقل مهاراتها في مواجهة التغيرات واستقبالها بمعايير متفاعلة، تخضع لمقاييس العربية وأصولها، وهذا يبعث مفردات العربية وتراكيبها من جديد، بما يدلل على رحابة العربية واتساع رقعتها الحضارية.

ويمثل الإبراهيمي الإدارة الحكيمة التي طوعت التحديات وحسمت نتائجها لصالح الثقافة العربية في الجزائر، يعد من روائع إبداعات الإبراهيمي بفكره المستنير الذي يسعى إلى بناء الوعي العربي وإيقاظ شعور القوة والتقدم والازدهار رغم المآسي والآهات، ولعل روح الاستثمار الواعي الذي مارسه الإبراهيمي صنع منه إنساناً رائداً متفاعلاً مع قضايا شعبه وأمته، وهذا انعكس على اللغة العربية؛ لأنها اللسان الناطق الذي يفصح عمّا يدور في كيانه ويدل على رجاحة فكره في ظل الحالة الثورية التي يمر بها أبناء الجزائر، إن الإعداد الفكري والأيدلوجي للإبراهيمي لعب دوراً بارزاً في حسم كثير من القضايا التي تتعلق بمكانة العربية وتنميتها وتطويرها.

لم يكن الإصلاح اللغوي الذي أرسى قواعده الإبراهيمي اعتباطياً أو عبثياً، إنما جاء وفق رؤية نهضوية تنطلق من أصول النهضة وأساسيتها، وهنا تتجلى أهمية العربية في مسيرة البناء والإعداد في التكوين العلمي للعقول المستنيرة وبناء الأجيال وصناعتها بمنهجية حضارية متفاعلة، يكون لها تأثير واضح على حياة الأمة وسلوكيات أبنائها، إن الشعور بالمسؤولية في الإعداد اللغوي ومتعلقاته يعد من الركائز الحضارية المهمة التي يُشاد عليها الوجود العربي، وتُبنى عليها الشخصية السوية المتفتحة الواعية بقضايا شعبها وأمتها، وتتفهم البعد القومي والتاريخي لأبناء الأمة الواحدة.

ويعد التجديد في شكل العربية ومضمونها الذي قام به الإبراهيمي في ألفاظ العربية ودلالاتها من المؤشرات التي تحوي في طياتها أبعاد استراتيجية متراكمة؛ لأن قضية الترجمة والتعريب من وسائل التوسع اللغوي التي تقوم على استقبال المستجدات العلمية ومضامينها المعرفية التي لم يكن للعربية سابق عهد بها، لذا يجسد التعريب زاوية مهمة في فكر الإبراهيمي أرفدت العربية بسيل عرم من المعارف والعلوم والفنون والآداب التي أنتجتها الحضارة العربية، ويمثل ذلك سبق حضاري قام به الإبراهيمي بما يشي بعمق الحس الحضاري، وانفتاح آلياته ووسائله وأساليبه.

ويتجسد البعد الحضاري للإبراهيمي في منجزات فكره اللغوي في مقدرته على تبليغ رسائل اللغة العربية بمضامينها المتنوعة من خلال الاعتماد على مهارة الاستماع في نقل المعرفة وإيصالها؛ مما لقى رواجاً وأصداء فاعلة لدى جمهور المتلقين، ونحن نعلم أن مهارة الاستماع توفر الوقت والجهد ولها قدرة عالية على الإقناع والتأثير علاوةً على أن "السمع أبو الملكات اللسانية"[16]، ووسع بفكره دائرة التثقيف اللغوي من خلال نشر آداب اللغة العربية وتعاليمها، والحث على فضائلها وتعميمها مما انعكس على سير عجلة الحضارة وبناء أركانها التي من شانها أن تحقق لنهضة علمية شاملة في الميادين كافةً.

وأرسى الإبراهيمي العمل المؤسساتي المبني على التفكير الجمعي القائم على

التنسيق والمتابعة والتعاون والتشبيك من أجل تحقيق الأهداف التنموية المبتغاه، مما خدم مسيرة الإصلاح والنهضة وأسهم في فاعليتها وتقدمها، واستطاع الإبراهيمي بفكره النير أن ينشر المبادئ الرئيسة لحالة إثبات الذات وبنائها في ظل ازدياد موجات التغيرات والتحولات الاستراتيجية التي تتعرض لها المجتمعات العربية في تلك الحقبة، فحقق الاستثمار الأمثل في وسائل الإعلام اللغوي التي تبلغ رسائل الحضارة وتنقلها للجمهور، فالعلاقة بين اللغة والإعلام" وثيقة وقوية جداً، فاللغة في الإعلام هي العمود الفقري الذي تقوم عليه"[17]، فعقد الإبراهيمي الخطب والندوات، كتب المقالات والرسائل، وقدم الإرشادات والتعليمات، وشارك في العديد من التظاهرات العلمية المتنوع ، وحاضر في مراكز العلم والنهضة المترامية في ربوع عالمنا العربي، مما رفع درجة الوعي وتوسيع آفاقه وتنميته وتطويره، فيلعب الإعلام دوراً بارزاً في "تثقيف الجماهير وتوعيتها بما يتفق وغايات السياسات التنموية الموضوعة"[18]، وهذا يسهم في تحقيق التنمية المعرفية واللغوية في شتى المجالات.

إن الحس القومي المتزايد لدى الإبراهيمي وتعرض الجزائر للاستعمار وأعوانه، حدا به أن يشيد نهضة حضارية وبصمات واضحة في سبيل الارتقاء بأبناء المجتمع الجزائري وتحريرهم من دنس المحتل واعوانه، واعتاقهم من ربقة الخنوع والانصياع لجبروت المحتل وعواهن الجهل والتبعية والتخلف، لذا نجد أن هذه النهضة آتت أُكلها في دولة الجزائر الشقيق، وزاد رصيدها العلمي والمعرفي المنجز في ظل تنوع الثقافات وتداخل الحضارات، وهذا يمثل عتبة أساسية؛ لتحقيق نهضة عربية شاملة تحقق الرقي والتقدم لأبناء الأمة العربية والإسلامية.

إن الإمام الإبراهيمي ظاهرة إصلاحية قام بجهود تذكر فتشكر في مضمار النهضة والتقدم، وافتدى اللغة بأفكاره النيرة من أجل بناء الشخصية اللغوية المستقلة التي تنهل من أصول التراث وتستثمر الأساليب المتوفرة من أجل نشر العلوم ونقل المعارف بصورة حضارية متفاعلة لها آثارها في مسيرة تنمية العربية وتطويرها، وجاءت جهوده ضمن حركة نهضوية مع ثلة من الأحرار الذين جادوا بقرائحهم من أجل شعوبهم وأمتهم في دولة الجزائر.

النتائج والتوصيات

توصل هذا البحث لمجموعة من النتائج والتوصيات، وذلك على النحو الآتي:

أولاً- النتائج.

1- ينطلق الفكر الإصلاحي عند الإمام الإبراهيمي من كون اللغة إحدى المقومات الأساسية؛ لبناء الوعي والشخصية العربية والإسلامية المتفاعلة مع واقعها والتي تمتلك رؤية لمستقبلها.
2- تكونت شخصية الإمام الإبراهيمي من ركائز رئيسة مبنية على أصول بناءات الشخصية العربية والإسلامية الحضارية التي يكون بمقدورها تحقيق النهضة والرقي والتقدم؛ لما تمتلكه من رصيد فكري وثقافي يتفاعل مع مسيرة الإصلاح والنهضة.
3- وسع الإمام الإبراهيمي وسائله في تحقيق الإصلاح اللغوي من أجل المحافظة على سلامة العربية وتنميتها وتطويرها.

4- شمل فكر الإبراهيمي أدوات تنموية مبنية على أهداف استراتيجية، تتمثل في بناء الثقافة لدى الشعب الجزائري وتوسيع دائرتها من خلال وسائل الإعلام المتفاعل مع جمهور المستهدفين كالخطب والصحف والمحاضرات والمشاركات التي قام بها في أماكن مختلفة.

5- وضع الإمام الإبراهيمي أبعاداً حضارية لمسيرة النهضة والبناء، تتمثل في استهدافه للقطاعات الحيوية كالثقافة والتعليم والوعظ والإرشاد من أجل تحقيق الرقي والتقدم والاستقلال.

6- نشر الإمام الإبراهيمي القيم الحضارية، وأسهم في ترتيب سلم الأوليات من خلال عملية النهضة، بإعادة تشكيل وعي الشخصية وبناء الذات التي يستهدفها المستعمر الغازي، من خلال استثمار المعطيات كافةً بعقلية حكيمة.

7- يعد التفكير الجمعي عند الإبراهيمي من مقوماته فكره الإصلاحي الذي استطاع من خلاله بناء المؤسسات وإنشائها؛ لتحقيق الرقي والتقدم بالتعاون والتنسيق وتظافر الجهود وتوحيدها.

ثانياً: التوصيات.

1- الاهتمام بمقومات التشكيل الفكري للشخصية الجزائرية، وبيان الأبعاد الحضارية في ذلك في ضوء متغيرات مجتمع المعرفة.

2- دراسة منهج الجهود الإصلاحية في إدارة المتغيرات وكيفية التعامل معها عند المفكرين الجزائريين.

3- تسليط الضوء على جهود الجزائريين في خدمة اللغة العربية والمحافظة على سلامتها بما يعزز الكينونة الحضارية لأبناء الأمة العربية والإسلامية.

- الهوامش:

---

(1) (الإبراهيمي، 1997: 7/1).

(2)(الإبراهيمي، 1997: 6/1).

(3)(دراوشة، 2014: 243).

(4)(الإبراهيمي، 1997: 7/1-8).

(5)(ويكيبيديا، نت).

(6)(الإبراهيمي، 1997: 7/1).

(7)(دراوشة، 2017: 1462/3).

(8)(الرحيلي، 1424: 345-365 والعفاني، 2004: 537/1).

(9)(جبل، 2000: 7).

(10)(ويكيبيديا، نت).

(11)(ويكيبيديا، نت).

(12) (حسان، 2006: 28 والظاظا، 1990: 91)

(13)(الصالح، 1960: 32).

(14) (دراوشة، 2016: 274).

(15)(دراوشة، 2016: 299).

(16)(ابن عاشور، 1433: 111).

(17)(دراوشة، 2013: 1).

(18)(الموسى، 1997: 137).

فهرس المصادر والمراجع

1- الإبراهيمي، أحمد طالب(1997م): آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت.

2- جبل، محمد(2000م): دفاع عن القرآن الكريم أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، البربري للطباعة الحديثة، القاهرة.

3- حسان، تمام(2006): اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط5، القاهرة.

4- دراوشة، حسين(2013م): لغة الإعلام قراءة واطلاع، مكتبة الطالب الجامعي، ط1، غزة.

5- دراوشة، حسين(2014م): الإصلاح اللغوي في العمل المعجمي للمجامع اللغوية، مجلة العربية

(عدد خاص)، مجمع اللغة العربية الفلسطيني، فلسطين.

6- دراوشة، حسين(2016م): التنمية اللغوية للشباب في ظل المتغيرات المعاصرة (رؤية ومقترح)، منشورات مؤتمر "الشباب والتنمية في مدينة بيت حانون"، بلدية بيت حانون، غزة.

7- دراوشة، حسين(2017م): تأويل النص القرآني وأثره على ظاهرة التطرف والعنف، منشورات مؤتمر" أزمة الفهم وعلاقتها بظاهرة التطرف والعنف"، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين.

8- الرحيلي، حمود(1424هـ): تحصين المجتمع المسلم ضد الغزو الفكري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية.

9- الصالح، صبحي(1960):دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط1، بيروت.

10- الظاظا، حسن(1990): اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة، دار القلم والدار الشامية، ط2، دمشق وبيروت.

11- ابن عاشور، محمد الطاهر(1433هـ): أصول الإنشاء والخطابة، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط1، الرياض.

12- العفاني، سيد(2004م): أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع،ط1، جدة.

13- الموسى، عصام(1997): المدخل في الاتصال الجماهيري، مكتبة الكتاني للنشر والتوزيع، ط4، إربد.

14- ويكيبيديا، محمد البشير الإبراهيمي، https://ar.wikipedia.org/wiki.